سلسلة مطويات شبكة بينونة

الصاحب الباقي

الشيخ يوسف بن حسن الحمادي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هذا الصاحب الموصوف بهذه الصفة وهي البقاء يختلف عن سائر الأصحاب المعهودين، فأمرُهُ ليس كأمرهم، فهو مع صاحبه في قبره لا يفارقه، وعند المرور على الصراط لا يتركه، وفي عرصات القيامة لا يخذُله.

وبه تُنال الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، وعليه تُبنى السعادة، وبه تعلو الدرجات عند الله تعالى، إنه العمل، نعم، العمل الصالح الذي به يهيئ الإنسان لنفسه الخير ويدفع عنها الشر، قال ﷻ: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧].

ومن تمام نصح النبي ﷺ لأمته أن بيَّن لها حقيقة هذا الأمر، ونبَّهها على العناية به، وبيان هذا في الحديث الآتي:

عن أنس بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «يَتْبع الميتَ ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يَتْبعُه أهلُهُ ومالُهُ وعملُهُ، فيرجع أهلُهُ ومالُهُ، ويبقى عملُهُ»[1].

المعنى الإجمالي:

دل الحديث على أن للمرء أخلاءَ ثلاثةً، وهم متفاوتون في نفعه، ومرافقته، والوقوف معه، فاثْنانِ منهما يتخلَّيان عنه ويتركانه، والثالث يبقى مصاحباً

(١) رواه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠).

له، فيدخلُ معه القبر وهو عمله، وهذا معنى قوله ﷺ: «ويبقى عملُهُ»، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعنى بقاء عمله: أنه يدخُلُ معه القبر»[٢].

وفي هذا المعنى قول النبي ﷺ: «مثلُ المؤمن ومثل الموت، كمثل رجل له ثلاثة أخلاء، أحدهم ماله، قال: خذ ما شئت، وقال الآخر: أنا معك فإذا مِتَّ أنزلتك، وقال الآخر: أنا معك، وأخرج معك، فأحدهم ماله، والآخر أهله وولده، والآخر عمله»[٣].

فالصاحب الأول: الأهل، أحد الراجعين بعد دفن الميت، فهم لا ينفعونه بشيء بعد موته إلا من استغفر له ودعا له، وقام بما ينفع ميِّته من الأعمال الصالحة التي وردت النصوص بوصولها للميت، وقليل ما هم.

والصاحب الثاني: المال، وهو كسابقه في عدم نفع صاحبه إلا ما كان منه في سُبل الخير، وما سوى ذلك مما خلَّفه فهو لورثته، يقول ﷺ: «يقول العبدُ: مالي، مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس»[٤].

يقول الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا ينتفع العبد من ماله إلا بما قدَّم لنفسه، وأنفقه في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فأمَّا ما أكله ولبسه فإنه لا له ولا عليه، إلا أن يكون فيه نيَّةٌ صالحةٌ»[٥].

---

(٢) فتح الباري لابن حجر (١١/٣٦٥).

(٣) رواه البزار (٣٢٧٢)، وحسَّن إسناده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٤٨١).

(٤) رواه مسلم (٢٩٥٩).

(٥) شرح حديث يتبع الميت ثلاثة لابن رجب (ص١٤).

ولِمَا قد يُحدثه المال والأهل من ضرر على صاحبهما فإن النصوص تعددت بالنهي عن الاغترار أو الانشغال بهما عن طاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾[التغابن: ١٤-١٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[المنافقون: ٩].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده»(٦).

والصاحب الثالث: العمل، وهو أنفع الأصحاب لصاحبه إن كان صالحاً، وأشدُّهم عليه إن كان بعكس ذلك، قال تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت: ٤٦].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا حثٌّ على فعل الخير وترك الشر، وانتفاع العاملين بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة»(٧).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضاً: «ومن آثر عمله الصالح انتظم الأهل والولد والمال والعمل جميعاً، وابتهج بعمله في الدنيا، وصار نِعْمَ المؤنس له في قبره إذا فارقه الأهل والخلان، ثم لازمه أحسن ملازمة حتى يصل به إلى أعلى غرف الجنان.

أَلا وإن العمل أقل الأصحاب الثلاثة كلفةً ومؤونةً، وأكبرها مصلحةً وأبركها معونةً، فإنه أعظمها نفعاً وأحسنها وقعاً، وخيرها شفعاً؛ وذلك أن العبد إذا

(٦) عدة الصابرين لابن القيم (ص١١٦).
(٧) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (ص٧٥١).

صحَّت نيَّته وحَسُن قصده فيما عند الله، وقام بحسب استطاعته بتقوى الله، فأدَّى الفرائض واجتنب المناهي واستقام على ذلك إلى آخر العمر المتناهي = لم يفته التمتع بالأهل والمال، وكانت حياته حياة هناء، واغتبط بما أوتيه من أهل ومال، وجعل ذلك فرصة للتقرب إلى ذي العظمة والجلال»[٨].

وفي سنة النبي ﷺ البيان الشافي لحال المؤمن والكافر مع عملهما في القبر، فأما المؤمن فقال ﷺ فيه: «... ويأتيه رجل حَسَنُ الوجه، حَسَنُ الثياب، طيِّب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرُّك، هذا يومك الذي كنت توعَد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح...»، وأما الكافر أو المنافق فقال في حقه: «...ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، مُنتنُ الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث...»[٩].

وكل هذا دال على فضل العمل الصالح وحُسْن عائدته على العبد، وعلى شناعة العمل السيء وقبح ثمرته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن العبد إنما يؤنسه في قبره عمله الصالح، فكلما أكثر من الأعمال الصالحة -كالصلاة والقراءة والذكر والدعاء والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- كان ذلك هو الذي ينفعه في قبره،

(٨) مجموع خطب الشيخ عبد الرحمن السعدي (٦/٢٠٩).
(٩) رواه أحمد (١٨٥٣٤) وغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٦٧٦).

لا ينفعه بناء القبر ولا توسيعه ولا ترتيبه»[10].

ومن فوائد الحديث:

١- الحث على الإقبال على العمل الصالح؛ إذ هو النافع لصاحبه، والباقي معه، والمؤنس له، والزاد له في قبره، وكيف لا يُقبل المرء على هذا الصاحب ويؤاخيه ويلازمه ولا يُفرِّط فيه وهذا الصاحب من أسباب نجاته، وطرق سلامته، ووسائل عافيته من الفتن الظاهرة والباطنة -بإذن الله-، وبه ينال من عمل عملاً صالحاً وفاء الأجر، وبقاء الثواب، وزيادة الفضل، بل ودوامه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ [فصلت: ٨]، وتمام الطمأنينة، والدخول في رحمة الله، والتوفيق للهداية، ومضاعفة الحسنات على توالي السنوات، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣]، وتحقيق الاستجابة لله ولرسوله ﷺ، وابتغاء رضوان الله، والفوز بمغفرته، وزيادة القُرب منه، وتوالي المكارم الربانيَّة على من عمل صالحاً من المسارعة إلى الخيرات، والمسابقة إلى فعل الحسنات، فإن «فِعْل الحسنات موجب للحسنات أيضاً، فإن الإيمان يقتضي الأعمال الصالحة، والعمل الصالح يدعو إلى نظيره وغير نظيره»[11]، والظفر بمحبة الله، ونيل الدرجات العليا، وتكفير السيئات، والسعة في الرزق، والبركة في العمر والمال والأهل والأولاد، والوداد في قلوب الناس، وبالعمل الصالح يدخل المرء في عِداد عباد الله الصالحين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(١٠) جامع المسائل لابن تيمية (٤/٢١٩).
(١١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٠/١٢٥).

لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٩]، وختاماً دخول الجنة التي هي مُنى كل راغب، ومطلب كل طالب للسعادة الأبدية، قال تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾[النساء: ١٢٢].

إلى غير ذلك من العوائد الطيبة، والثمار المباركة التي يجنيها المرء بصحبته لهذا الصاحب وحرصه عليه، وعلى كل ما تقدَّم من فضائل العمل الصالح جاءت النصوص الشرعية، وأبدت وأعادت في تقريرها وبيانها والتأكيد عليها.

٢- كمال نُصح النبي ﷺ للأمة، وذلك ببيانه هذه الأمور، وحُسن عرضه لهذه المسألة، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧].

قال قتادة بن دعامة السدوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا ابن آدم، لا تعتبر الناس بأموالهم ولا أولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح، إذا رأيت عبداً صالحاً يعمل فيما بينه وبين الله خيراً، ففي ذلك فسارع، وفي ذلك فنافِس ما استطعت إليه قوة، ولا قوة إلا بالله»[١٢].

٣- فيه الإشارة إلى أن قَدْر المرء ووزنه بعمله الصالح، عن يحيى بن سعيد أن أبا الدرداء كتب إلى سلمان الفارسي: «أن هَلُمَّ إلى الأرض المقدسة،

(١٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٣٣٦).

فكتب إليه سلمان: إن الأرض لا تقدِّس أحداً، وإنما يقدسُ الإنسانَ عملُه»[١٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومقصوده بذلك: أنه قد يكون بالأرض المفضولة من يكون عمله صالحاً أو أصلح بما يحبه الله ورسوله»[١٤].

وقال أيضاً: «...أفضل الأرض في حق كل إنسان أرض يكون فيها أطوع لله ورسوله، وهذا يختلف باختلاف الأحوال، ولا تتعين أرض يكون مقام الإنسان فيها أفضل، وإنما يكون الأفضل في حق كل إنسان بحسب التقوى والطاعة والخشوع والخضوع...»[١٥]، ثم ساق أثر سلمان الفارسي آنف الذكر.

وأختم هذه المقالة بهذه الوصايا:

الوصية الأولى: على المرء أن لا يحقرن من العمل الصالح شيئاً -ولو صَغُر-؛ لأن الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله، ويتوجه به إليه ﷻ، وقد قال النبي ﷺ: «**لا تحقِرنَّ من المعروف شيئاً...**»[١٦]، وعلى هذا فعلى الصادق في عبادة الله أن يسارع إلى كل عمل صالح، فيأخذ حظه منه، فلربما كان هذا العمل الذي استصغره هو سبب نجاته، قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا ينبغي للعاقل أن يحتقر شيئاً من أعمال البر فربما غُفِر له بأقلِّها»[١٧].

ومن وصايا عمرو بن قيس الملائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ النافعة قوله:

---

(١٣) رواه مالك في الموطأ (٢٨٤٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٠٥/١).
(١٤) جامع المسائل لابن تيمية (٣٤٦/٥).
(١٥) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٨٣/١٨).
(١٦) رواه مسلم (٢٦٢٦).
(١٧) التمهيد لابن عبد البر (١٢/٢٢).

«إذا سمعتَ بالخير فاعمل به ولو مرة واحدة»[١٨].

الوصية الثانية: أن يُعلَم أن أساس جميع «الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومنِّه وصدقته على عبده إن أعانه عليها، ووفقه لها، وخَلَق فيه إرادتها والقدرة عليها، وحبَّبها إليه، وزيَّنها في قلبه، وكرَّه إليه أضدادها...»[١٩].

قال أبو محمد الجريري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من توهَّمَ أن عملاً من أعماله يوصله إلى مأموله الأعلى والأدنى فقد ضلَّ عن طريقه، لأن النبي ﷺ قال: «لن ينجي أحداً منكم عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة»[٢٠]...ومن صحَّ اعتماده على فضل الله فذلك الذي يرجى له الوصول»[٢١].

ومتى رأى الموفَّق فضل الله عليه زال العُجب من قلبه بنفسه، وحقق العبودية الصادقة لخالقه، وسارع في طاعة ربه.

الوصية الثالثة: على المرء المقبل على الأعمال الصالحة أن لا يغيب عن باله الاهتمام بمصادرها -أعني مصادر الأعمال الصالحة- فإنها أساس القبول وأصل رضى الله تعالى وإعانته -جل وعلا- لطالب الأعمال الصالحة ومريدها؛ فإن في القرآن والسنة الصحيحة من الدلالة على الأعمال الصالحة والتنبيه عليها ما ليس في غيرها بقيودها المعتبرة وهي: الإخلاص لله وأن لا يعبد إلا هو سبحانه، وأن لا يُعبد إلا بما شرع «إذ ليس كل عمل يَصلُح لأنْ يُعبد به الله، ويراد به

(١٨) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/١٠٢).
(١٩) مدارج السالكين لابن القيم (١/١٤٤).
(٢٠) رواه البخاري (٦٤٦٣) واللفظ له، ومسلم (٢٨١٦).
(٢١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/٣٤٨).

وجهه، وليس كل ما كان في نفسه حسناً وصلاحاً يُراد به وجه الله وليس بصالح»[٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «...الشرائع أغذية القلوب، فمتى اغتذت القلوب بالبدع لم يبق فيها فضل للسنن، فتكون بمنزلة من اغتذى بالطعام الخبيث»[٢٣].

وختاماً: فعلى الناصح لنفسه أن يجِدَّ في القيام بالأعمال الصالحة، وأن يحذر من موانع قبولها، ويتفطن لأسباب بطلانها، ويسعى في وسائل اعتبارها عند الله تعالى.

هذا وصلى الله على نبيِّنا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

❁ ❁ ❁

(٢٢) جامع المسائل لابن تيمية (٦/٢١).
(٢٣) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٢/١٠٤).